«الساعات التي يقضيها الأطفال أمام التلفاز هي عبارة عن مادة مخدرة خفية يستخدمها الأبوان، فالأطفال الصغار بمجرد وجودهم مرتاحين على أرضية البيت الخشبية أمام شاشة التلفاز، يعم مباشرة صمت مطبق رائع ولكنه مُريب...»

مقولة مستقاة من جريدة نيويورك تايمز عام 1948م!

**الفصل الخامس**

# التلفاز والحياة الاجتماعية والطفل في هذا الخضم

إن خطورة التلفاز لدى الأطفال ـ أو هيمنته عليهم إذا أردنا ـ تدعو إلى القلق.

إن القلقين وربما المهاجمين في المقام الأول هم الوالدان والمدرسون. وهذا أمر منطقي جداً: فهذان الصنفان من الكبار يعيشان يومياً التطور الحاصل في عالم الأطفال المحفوف بالتيهان والمخاوف والفرحة والقيود. فالمدرسون الذين يقومون بمهمة التربية يرون بانزعاج ممزوج بالاحتقار أو الذعر الأطفال الذين أُوكلوا إليهم من قبل المدرسة يصرفون وقتاً متزايداً من فراغهم أمام أجهزة التلفاز.

إنهم يشاهدون الأطفال! هل هذا التلصص ناقد؟ أم أنه عفوي، أم أنه مجرد تلصص ليس إلا؟

## هل هي محاسبة على النوايا؟

قبل أن ندخل موضوع تأثيرات التلفاز على الناحية الاجتماعية للطفل من بابه الواسع، بدا لنا أن نحدد مسؤولية الكبار كحماة لأرواح الأطفال.

في المحاكمة الأخلاقية التي تفصل بين العديد من الآباء وتقريباً كل المدرسين من جهة، والهِدرَة (أفعوان خرافي ذو تسعة رؤوس) التلفازية، هل يلعب المدرسون دور المدعي العام أم الشهود أم المتهمين أم شركاء الجريمة؟ السؤال جوهري، وتجاهله يدل على استهتار يشوبه الخداع، ونحن سنحاول الإجابة عليه بإسهاب، أو توضيح ملابساته على الأقل. نعم، فالوالدان والمدرسون لهم الحق بل ويجب عليهم أن يلعبوا دور المدعي العام طالما أن البرامج المخصصة للأطفال والشباب ظاهرة الرداءة والتعاسة. وبحكم كونهم مسؤولين ومستهلكين و «دافعي ضرائب»، يتوجب عليهم عرض أفكارهم و ملاحظاتهم وتصوراتهم حول تلفاز يحترم الأطفال. ولكن ما الإمكانات والوسائل المتاحة للقيام بذلك؟

لا شك أن الوالدين والمربين هم شهود فعليون، ولكن شهاداتهم ليست غالباً سوى ملاحظات محدودة وسطحية، فنادرون هم المدرسون القادرون على المراقبة الرصينة والملائمة لاستهلاك الأطفال للتلفاز، وتأثيره المحتمل عليهم، إن ملاحظاتهم سطحية حتمية وقاسية وينقصها أبسط قواعد الموضوعية، فهل يمكننا قبول شهاداتهم؟ أم أنهم فاعلون؟ وكي يستحقوا هذه الصفة يجب على المدرسين وخاصة الوالدين أن يشاركوا في اختيار البرامج المشاهدة مع أطفالهم، ويقبلوا أن يشاهدوا التلفاز معهم، وأن يتناقشوا معهم ويتحاورا ويتبادلوا الآراء حول البرامج، إن الحوار مفقود في كثير من العائلات ـ وكثير من الصفوف بالتأكيد! ـ إن النظر معاً وباتجاه واحد و إن كان باتجاه التلفاز، والمشاركة الفعلية يعنيان فعلاً أن نكون فاعلين! ونحن ما زلنا بعيدين جداً عن هذا.

بقي في هذه المحاكمة التي يتهم فيها التلفاز بسوء النية أن نحدد درجة إسهـام الأهل مهما كانت من ناحية سلطتهم الأبوية والتربوية، وهنا أيضاً يتبين لنا أن المسؤولية كبيرة وثقيلة.

من يشتري التلفاز وجهاز الفيديو؟ من يدفع رسوم الاشتراك؟ من يضع الجهاز وسط غرفة الجلوس (و أحياناً جهازاً آخر في غرفة الأطفال)؟ من يقضي سهرة كاملة أمام الشاشة الصغيرة؟... من الإجابة المتشابهة على كل هـذه الأسئلـة يبـدو لنا من الصعب جـداً أن نحكم بخلـو طرف الأهل مـن إسهام بالإيـواء، وإسهام بالقدوة. وهنا، قراءنـا الأعزاء و أصدقاءنا الأوفيـاء للحظات، يجب علينا أن نقبـل باستبدال ثوب المدعي العام بثوب محامي الدفاع.

## هل التلفاز أفيون الشعوب؟

إذا كان البالغـون سواء كانوا آباء أو لم يكونوا، وسواء كانوا مدرسين أو «كارهين للأطفال»، يشاهدون التلفاز، فذلك لأنهم بحاجة إلى مشاهدته، و أنهـم يحبـون أن يعيشوا لحظات العطالة الفكريـة التامة، إنهم يحلمون بنسيان عالم متاعبهم اليومية، والطقوس المزعجة المرافقة له، وأوضاعهم المهترئـة، إنهم يريدون بكل بساطة أن ينسـوا أنفسهم خلال لحظات، ولا داعـي لأن يُشعرنا أحد بوجود صراع بـين الثقافة والإعلام، فالبرامج من هذا النمط نادرة جداً، وتبث في ساعات غير معروفة، ولا يسعنا إلا أن نهنئ المنتجين لهذه البرامج الذين يتابعون السير في هذه الطريق النبيلة المعزولة. لننظـر حولنا، ماذا يريد معظم الناس؟ وقتاً حراً وملابس، وإجازات على شاطئ البحر أو للتزلج على الثلج، ومراكز تجارية، وعبوات معدنية للمياه الغازية، ومراكز لياقة، ومجلات مليئة بصور الليدي ديانا...

يريد الجمهور أن يتسلى، وأن يقتنع بأنه يلهو حتى لا يشعر بأزمته الإنسانية التي يمكن تفهمها، إنه يهرب من الواقع ويعلل نفسه بحسب استطاعته، فمع ضياع مصداقية رجال الكنيسة، وغلاء أجور المحللين النفسيين، والعزلة السائدة في المدن الكبيرة، يبقى التلفاز الوحيد تقريباً القادر على تخفيف آلام البؤس والخوف عند الإنسان، في أي وقت وأي مكان وأي وسط اجتماعي.

ويمكننا سماع من يحنون «لأيام زمان الطيبة» يكيلون المديح لمجتمع متضامن، وعائلات متماسكة، وأجيال تعيش تحت سقف واحد، والولائم العائلية الكبيرة حيث تُطرح بخجل عبارات حول أمور الحياة.....

ولنفتش قليلاً في ذاكرة الأيام السابقة مستعينين بعصا الأمانة، وسنجد فيها الفقر والحرمان، والتسلط الأبوي العنيف، والكحولية والتدرن الرئوي، وأوضاع المرأة المزرية، واستغلال الأطفال، وتفاوت طبقي اجتماعي لا يمكن تجاوزه، ومتع مخصصة حصراً لتنويم الدماغ وجموده.

لم يدمر التلفاز شيئاً، ولكنه لم يبنِ شيئاً لائقاً، لقد تطورت مجتمعاتنا لتزيد من حظوظ المادية ببشاعة، والأنانية الشخصية أو العائلية، وليس التلفاز سوى واحد من مكوناتها يحمل الانعكاسات المتدنية التي نعرفها.

### «أصبح التلفاز مُحرك المجتمع»

كارلو فريكسيرو هو أحد المفكرين المهتمين بالتلفاز الأكثر أصالة. بعد أن انفصل عن السيد بيرلسكوني الذي اشتغل معه بدايات كمستشار، التحق بجان بيير إلكاباش، في تلفاز فرنسا حيث أصبح مسؤولاً عن الإنتاج.

LNQ (أحرف من بدايات اسم الشخص الذي أجرى المقابلة): لم يكن التلفاز بهذه القوة أبداً، ولكن لدينا شعور بأنه لا يعرف إلى أين يسير...

كارلو سفريكسيرو: إننا نعيش نهاية تلفاز العروض في الثمانينات. هذا التلفاز كان، فقد كان «يسرق» أفضل ما عند وسائل الإعلام الأخرى، كالسينما والمنوعات والموسيقى والرياضة، إننا اليوم في مرحلة ثالثة، فقد أصبح التلفاز ملك وسائل الإعلام، إنه هو الذي «ينتج» الحياة الواقعية، وهو الذي ينتج السينما وحتى الرياضة. بدون التلفاز بطولات العالم الرياضية لا وجود لها، وقد أصبح التلفاز منتجاً حتى لأحداث الإنزال العسكرية، فالحقيقة أصبحت تصنعها وسيلة إعلام مهمتها الأصلية إنتاج الخيال...

إننا حالياً في مرحلة انتقالية. ويلزمها تجميع كل شخصيات المرحلة السابقة واستخدامها بالكامل وعصرها كما يُعصر الليمون (....)

ونشعر بأن مللاً قد تولد عند المشاهدين من تلفاز الثمانينات فهم يطلبون شيئاً آخر، ويريدون تلفازاً ذا علاقة حميمة مع الحياة...

هذا ما أدعوه الانتقال من التلفاز القائم على الاستعراض والواقع إلى التلفاز الديمقراطي، كان لتلفاز الاستعراض ــ الواقع وظيفة انتقالية، أما التلفاز الذي نقوم به اليوم فهو يعكس بقوة استطلاعات الرأي، لقد غدا المشاهدون كاتبين للسيناريو، إن أفضل الأفلام التلفازية تسويقا هي الأفلام التي تتكلم عن الواقع، مثل «المؤسسة»، خيال ذو علاقة وطيدة بالاستعراض ـ الواقع، سوف يتم بالتدريج استبدال التلفاز القديم بالتلفاز الواقعي الجديد، وهو تلفاز الحياة

اليوميـة السياسيـة، وإن النجـاح التلفازي للسيد برنـار تابي يفسره هذا، إنه التلفاز الذي أصبح محرك المجتمع.

أحدهم قال إن السينمـا هي «الموت أثناء العمل». أما التلفاز فهو علـى العكس «الحياة في العمل». إن البرنامج التي تعرض الحياة هي التي ترسم تلفاز المستقبل.

ولكن التلفاز هو آلة خطرة، آلة تحدث الخراب.

ولنأخـذ إيطاليا مثـلاً، فالتلفـاز ساعد عمليـة التنظيف وجلاء الأمـور، ولكنه بمفارقة ساعد كذلـك بيرلوسكوني إلى الوصول؛ لأنه لم يوجـد شخص يواجهـه، ولأنه فهم تماماً قواعد لعبـة التلفاز، إن «التنظيـف» سمح بفرض رجـل من الحرس القـديم كبيرلوسكوني، لأن التلفـاز يجيد هدم الماضي ولا يجيد البنـاء، ولكننا بحاجة دوماً للإيجابيـة، والشخـص الـذي يجيـد بعـث الإيجابية علـى التلفاز، يستطيـع التحكم بقواعد اللعبـة، وإن لم يكن هذا الأمر جديداً، هذه هي خطورة التلفاز، وكأننا بحاجة لتأكيد أن التلفاز لا يعني الحرية.

والتلفاز أيضاً في كثير من الأحيان هو حلبة صراع الفكرة الوحيدة....

لقـد أصبـح التسويق هـو حلبة الفكـرة الوحيـدة، ولكن يفترض بالتلفـاز أن يكـون مكان الفكرة الثنائية، فـإذا أخذنا السياسة مثالاً فهو السيد تابي وجهاً لوجه مع السيد دوفيلييه، يصعب اليوم على كل الأشخاص الذيـن يوحدون النـاس أن يكونوا في حالـة انسجام مـع روح العصر على التلفـاز، إن الرابح هو الـذي سيكتشف ميشيل بولاك الجديد (مُعِدُ برنامج مخصص للحوار كان يحتد فيه الجدل والنقاش في الثمانينات وعنوانه «حق الإجابـة»). وبسبب الدعايات

يجب التأكـد من وجود مشاهدين مضمونـين، وهكذا يستحيل علينا التجديد. إن الدعاية تحمل مسؤولية كبيرة في قلة الشجاعة.

أقـوال لكارلو فريكسـيرو جمعها جان مارسيـل بوغيرو/ اليومية الجديدة Le Nouveaue Quotidien

18 تموز م1994

إن التلفـاز لم يصمـم أبـداً للأعـلام أو الأبطـال أو الحكمـاء، هـذه الذبابـات البيضـاء من البشر التي تعـرف كيف تتغلب علـى وحدتها، إنه وسيلـة إعلام للرعاع، وهذا يعني الغالبيـة الساحقة من الجنس البشري، أي أنـه صمم لنا كلنـا، الإبداع بغرض التسلية ليـس له هدف سوى جذب وأسـر وحبس الناس الضعفاء و المستسلمـين، استعراضي وسطحي هدف التلفـاز هو العرض وليـس التثبيت، كثير الكلام بـدون طائل وسطحي قد دخـل في آخر غرف الجلوس التـي يُتكلم فيها ليصمت الناس، إننا نادراً مـا نتناقش أمام التلفاز، فنحن نقلب المحطات ونتسلى بالطعام ونتخاطب همساً، فالوالدة تخيط والوالد يغط في نومه، نستهلك مادة التلفاز ونتثائب ونضحك ونحك جسمنـا ونتلاشى، وفي الغد نكون قد نسينا كل شيء، كما يحصـل لأحلامنا لنبدأ مـن جديد... إن التلفاز آلـة عجيبة تجعلك تحلم وأنت واقف، وتحلم وأنت جالس أو مستلق، إنه مشروع عجيب لتعطيل عمل الدماغ آني المفعول.

إن التسامـح في الـدور الاجتماعي للتلفاز عند البالغـين ظاهر للعيان، وذلـك يدفعنـا للاستغـراب من كـون الذين يمارسونـه بسلبيـة المُصاب بالتوحد، هم أنفسهم الذين يرفضون بقوة استخدام الأطفال له، إنه عبارة

عـن أمرٍ متناقض كاذب مـن ناحية؛ لأن الغالبيـة الساحقة من مشاهدي التلفـاز الكبـار ليسوا تحت سيطـرة المشاهد التي يرونهـا، ويعرفون كيف يضعونهـا في موضعها الصحيح، بالفصل بين ما هو حقيقي وما هو خيالي بهدف التسلية،ولكنهم يشكون في قدرة أطفالهم على القيام بذلك.

ومن جهة أخرى، فإنهـم يشعرون بالذنب لإهمالهم أطفالهم، وتركهم لتلفـاز هم أنفسهـم لا يستطيعون الاستغناء عنه، رغـم كونه لا يقدم لهم سوى القليل ثقافياً و اجتماعياً؛ بينما تقوم الحياة والمدرسة والتأهيل خارج البيت على قيم مختلفة، ولكن هل نحن متأكدون فعلاً من ذلك؟

## التلفاز والتفاعل العائلي

مـن خلال العديد من التحريات الجدية تماماً التي أجريت حول الدور الاجتماعـي للتلفـاز، حصـل إجماع حـول التأثـير السيئ عمومـاً في هذا الجانب، وذلك مهما كان عمر المشاهد، سواء كان 7 سنوات أو 77 سنة.

ولكن يجدر بنا الانتباه لنقطتين إيجابيتين نوعاً ما:

- التوتـرات العائليـة الكبيرة ضمن العائلـة، النزاعات تنتهي لنقص الوقـت والنقاش اللازمين لتفاقمهـا، يقوم التلفاز بـدور الواقي ـ كما يحمي واقـي الشمس من ضررها ـ من الأحقاد والضغينة، من خلال تأثيره المنوم وهيمنته التي تحل النزاعات المعقولة.
- يُميـت التلفاز على الشاطـئ العائلي تدفق الطُرَف وحوادث المجتمع والاستعراضـات والحـوارات ومنتجـات يمكـن لها أن تغـذي مادة الحديـث، وتُكـون رابطاً وربمـا حاجزاً بـين الطفـل وأصدقائه في المدرسة وعائلته.

إن النقطة الاخيرة وحدها كافية لإراحة ضمير معظم الاهل بتبرير وجود التلفاز في البيت: «كل أصدقائه عندهم تلفاز، ونحن لا نريده أن يشعر بأنه شاذ عن القاعدة، وأن نُبعده عن الواقع»، «لو لم يكن عندنا تلفاز، فإنه سيذهب ليشاهده عند الأصدقاء»، «وإذا لم يكن بإمكانه مشاهدة برنامج «زحف القرن العشرين»، فكيف يمكن له أن يجيب على أسئلة الأستاذ حول موضوع الحلقة؟».

العديد من التأكيدات التي لا تنجح في إخفاء تخلي الوالدين عن دورهما في التربية، فهم يحيلون مسؤولية استغلال التلفاز على الآخرين: الأصدقاء، المدرسة.... إن الأطفال المحظوظين الذين نشؤوا في وسط عائلي مشجع يُحفز الحوار ويحترم الاستماع، يمكنهم بدون شك الاستفادة من الساعات التي يقضونها أمام الشاشة الصغيرة، والأهم من الحالة المادية المريحة، هو المستوى الثقافي الاجتماعي للأم الذي يلعب دوراً محورياً، ولا شيء يثير الدهشة كالحقيقة الآتية: يصعب تعديل السوية الاجتماعية والثقافية. ولكن مستوى الثقافة له علاقة بالإرادة والمعرفة والتصميم، فالمال لحسن الحظ لا يصنع كل شيء، وهذا يبعث على الأمل، وسنعود لهذه الأمور في الفصل الأخير من الكتاب.

### مشاهدة التلفاز والمستوى الاجتماعي الثقافي

إن أكثر المؤشرات التي تشير إلى استهلاك الطفل للتلفاز هو مستوى تعليم الأم.

ويمكننا أن نستنتج نوعاً من السلوك:

الطفل الأقل مشاهدة للتلفاز:

- طفل صغير عمره أقل من 10 سنوات.
- وحيد.
- أمه وصلت للتعليم العالي.
- أبوه يشغل منصباً مهماً أو يمارس مهنة حرة.

الطفل الأكثر مشاهدة للتلفاز:

- مراهق عمره 13 ـ 14 سنة.
- من عائلة فيها ثلاثة أطفال أو أكثر.
- أم وصلت لنهاية المرحلة الابتدائية فقط.
- أب عامل أو عاطل عن العمل.

يظهر من خلال العديد من الدراسات أن العامل الأكثر أهمية في تحديد استهلاك التلفاز هو الوسط العائلي وقيمه.

معلومات مستقاة من محاضرة ألقتها الدكتورة كارين بوتشي طبيبة ملحقة بإدارة الخدمات الصحية في قسم التعليم الحكومي في مقاطعة جنيف، لوكارتو، تشرين أول 1990م.

مشاهدة التلفاز هي «فعالية» ذات طابع عائلي، وهذا يعني أن كل فرد من العائلة يشارك به، وحده أو بصحبة الآخرين.

إن وجود الطفل وحيداً أمام التلفاز هو أمر نادر الحدوث، وهناك عدة احتمالات ممكنة، فيوجد أطفال لا يشاهدون التلفاز وحدهم أبداً، وآخرون يشاهدونه لساعات وحدهم، ونمط ثالث يشاهدون التلفاز مع بعضهم دون وجود بالغين معهم.

obeikandl.com

فيما يتعلـق بمعظم الأطفال لا توجد طريقة وحيـدة طقوسية لمشاهدة التلفاز، فيمكن لنا أن نشاهده مع بيير أو بول أو جان كما اتفق. «إن التلفاز ليـس كقالب الكيك الذي ينقصـ نصيبنا منه كلمـا زاد عددنا». فالتلفاز شيء نشارك به الآخرين! لسوء الحظ، يبدو أن كلمة مشاركة لا تعني أبداً الحوار أو التساؤلات المشتركة أو النقاش أو الحصول على معلومة.

## بين الوقاحة واللامبالاة

جوابـاً على سؤالنا «هل تتناقشون مـع والديكم حول ما تشاهدونه على التلفـاز؟» يقـول تلاميذنا الكبـار: «أحيانـاً» أو «نادراً» أمـا الصغار السن منهـم فيفاجئهم السؤال، ويلزم أن نشـرح لهم ماذا نقصد منه، فالبعض منهم يعتبر طلب الإذن بتشغيل التلفاز هو «نقاش» بحد ذاته، وبعد توضيح الأمور لهم جيداً، تبين أن معظم المشاهدين صغار السن نادراً ما يتبادلون الحديث مع الوالدين بخصوص ما يشاهدون.

ولذلك سببـان كلاهما وجيه ويفسر ما يحـدث ويمكن أن نستنتجه من أقوالهم.

أولهمـا عائـد إلى أن الأهل لا يهتمون بالبرامـج المخصصة للأطفال، وأن هـذه البرامج تُعرض في أوقات لا تناسبهـم، وأنهم يفضلون إذا كانوا موجودين في المنزل القيام بأعمال منزلية «بدلاً من إضاعة الوقت في هذه الأمور الطفولية».

ثانيهمـا: عائد إلى طبيعة التلفاز العابرة والزائلة والمستسلمة السلبية، والتي تلخصها تعابير العديد من المراهقين، «ولكن الحديث أثناء البرنامج مزعـج!». بالتأكيـد، ربما، مع أن، ولكن، وماذا بعـد؟ «بعد البرنامج يكون

الوقـت متأخراً ويجب علينـا أن نذهب للنوم». يعـترف البعض أنه حصل على إيضاحات لبعض الأمور وربما امتداد للبرنامج، ولكن هذا الأمر نادر الحـدوث، أما الغالبية فلا تـرى حاجة لذلـك لأن كل المشاهدات العائلية المشتركة للتلفاز تقتصر على أفلام المغامرات أو المسلسلات «البسيطة» إن نتائـج استطلاعنا المحدود نسبياً (ثلاثون طالبـاً تقريباً) تشابه تلك التي حصلت عليها ليليان لورسا في عام 1989م، ونجدها في تعليقها: «التساؤل حـول الحوار مع البالغين يبدو وقحاً، فإذا اعتمدنا على شهادات الأطفال، نستنتج أن لا أحد يتكلـم معهم حول ما يشاهدون، إن الكلمات المستخدمة لاستجـواب الأطفـال لها دلالات معبرة، فالحديث يعنـي الشجار، ومن ثم مجموعـة من الاستطرادات الدرامية، والكلام يعني المضايقة: لأنه يُحدث ضجيجـاً، وعندما نستخدم كلمـة يشرح، فهي تعني في كثـير من الأحيان يُوبخ، وأحياناً تعني الشجار والصراخ كذلك».

«اصمت عندما يتكلم التلفاز!» أو «لا تلمس جهازي» هذه هي الشعارات التي يمكن أن يرفعها مدمنو التلفاز في نهاية القرن العشرين، ظهر التلفاز فجـأة كاندفاع بـركاني في الحياة العائلية قبل ثلاثـين عاماً، وخلال زمن قصـير احتـل مكانة في جميـع البيوت تقريبـاً، إن استخدامـه واستخدام الأجهـزة المتعلقة به (جهـاز الفيديو، الكاميرا، كامـيرا الفيديو، الألعاب الإلكترونية، والمينيتل.....) أصبح طبيعياً تماماً دون أن نقلق أبداً بخصوص تأثيراتها الاجتماعية، والنتيجة اليوم قاسية.

فالتلفـاز لم يشجع الحوار وتبادل الأفكار والنقاش ضمن الأسر، ولكنه لم يسبب في كثير من الأحيان إلا عزلة اجتماعية، وتشجيعاً على الاستهلاك أناني وانفرادي.

هل هذه الظاهرة قابلة للتراجع؟ بحكم التفاؤل الذي بُنيت عليه مهنتنا كمعلمين، وبحكم كوننا آباء، لا يمكننا إلا أن نجيب بالإيجاب، ولكن إقناع الوالدين بعدم تسليم أبنائهم لهذه الحاضنة (مُربية الأطفال) الرخيصة والمتوفرة يبدو مهمة صعبة، فلابد من استعادة السلطة والكلمة في وجه هذا المُخدر الذي يخدع بقدرته على تهدئتهم وجعلهم يسترخون هم وأبناؤهم؛ لأن الشاشة الصغيرة في واقع الحال لا تؤذي إلا إذا بالغنا أو أسأنا استعمالها! فلا يوجد تلفاز واحد لكل عائلة، وإنما تلفازات مختلفة لعوائل مختلفة.

## العائلة اليوم

## شاشة تلفاز وعالم دون نظام!

يعيش الطفل منذ سنين عمره الأولى في بيئة متغيرة وغالباً غير مستقرة بسبب عمل الأم، ويؤكد المختصون بعلم النفس على أهمية الاستقرار بالنسبة للطفل الصغير.

ما نتائج هذه الحالة من عدم الاستقرار؟

تزداد نسبة النساء العاملات باستمرار، والطفل الذي طالما تمنيناه وأحببناه ودللناه وداعبناه أصبح يعيش مع والديه مدة تزداد قصراً، إنه يقضي معظم وقته في دار الحضانة مع حاضنات وحارسات، وفي المدرسة بعد ذلك، أو أمام التلفاز، والقليل من الوقت الذي يقضيه مع والديه مخصص للهو واللعب، ومن ثم للمتعة والسرور، وأصبح الوقت المخصص لنقضيه معاً نادراً، إن اللحظات التي تجتمع العائلة فيها فتقوى رابطتها، تحد بنفس الوقت الانخراط في الحياة المشتركة مع المجتمع.

openkanal.com

لم يعد بيت العائلة مكاناً للتواصل وإنما عشاً ثنائياً وملجأً، و«الجنة» أكثر من كونها انعكاساً لصورة الحياة، ويمكننا أن نقول إن العائلة تشكل عازلاً بين الطفل وواقع الحياة، سابقاً كان الطفل يرى والديه في وسطهما المهني، وتتكون شخصيته على الواقع بقربهما، وهو يراهما غارقين فيه، كان يستوعب ويتمثل هذا الواقع شيئاً فشيئاً بشكل طبيعي من خلال نضج بطيء ومستمر كان يحدث عفوياً، إنه من الواضح أن عائلة فيها طفل وحيد، ومتقوقعة على نفسها لا تصلح لأن تكون مكاناً لاختبار الاحتكاك بالناس، إن الأطفال الكبار بخلاف الذين سبقوهم بالعمر يبقون أطول مدة ممكنة ضمن عوائلهم وذلك بإرادتهم، هل هذه الظاهرة هي مرحلة مراهقة تطول أكثر فأكثر؟، أم أنها رفض للنضج، أم أنها تعبير عن الحرمان من انسجام عائلي مطلوب؟

قبل عشرين عاماً كان البقاء مع الوالدين يعني احترام أوقات الدخول والخروج من المنزل، أما اليوم فالبيت العائلي غدا نُزلاً، فنحن نفعل ما نريد، ونحصل فوق ذلك على الراحة. الحرية الكاملة: لم يعد هناك ضوابط، ولم يعد هناك ممنوع. وفي النهاية فالوضع غير صحي: يتحمل الوالدان حتى ما يجرحهما ويصدمهما، خوفاً من خسارة أطفالهما، فهما لم يعودا يلعبان دورهما كوالدين، وإنما يلعبان دور الصديق، إن من أكبر فجوات التربية الحديثة تقلص ما كان ممنوعاً لعدة أجيال، لم يعد الوالدان قادرين على حفظ الغيرية* والمراهقون لا يجدون من يتمردون ضده. فنحن نعيش في جو من السلبية المستمرة دون قواعد حياة مفروضة. لقد انتقلنا من عالم النظام إلى عالم الفوضى. إن هذا عاملاً من عوامل التفتح دون

* الغيرية: (ما يخص الآخر) وهي عكس الذاتية (ما يخص الذات).

شك، ولكنه يصعب التعايش معه؛ فلم يعد كافياً أن نعيش على هوانا، وأن لا نتبع التقاليد، والعادات المتوازنة. لقد أصبح من الصعب أن تكون والداً: فقد بات من الضروري إعادة اكتشاف كل شخص وكيفية التعامل معه في كل حالة.

أقوال انتقتها ليليان ديلواس. منتقاة من مقابلة مع لويس روسيل مختص بالإحصاء وعلم الاجتماع مجلة عالم التربية، عدد أيلول 1989م.

## التلفاز والعلاقات بين الأقران ـ اللغة

يقول كثير من الوالدين أن امتلاك التلفاز يعني عدم الرغبة في جعل الطفل متطرفاً مقارنة بأصدقائه، إن صدق هذه الحجة مشكوك به، ويمكن تفسيرها بإلقاء اللوم على الآخر، أكثر من تفسيرها بالكرم التربوي الاجتماعي.

ولكن يبدو على كل حال مؤكداً أن مشاهدة التلفاز هي أيضاً طريقة للاندماج في مجموعة الأقران، إن مشاهدة نفس البرنامج، أو نفس الفيلم يسمح في الغد بالمشاركة بنفس النقاشات ونفس اللعب المشترك مع الأطفال الآخرين، ويمنح مرجعية (نحن لا نجرؤ على استخدام كلمة «ثقافة» في هذا الموضع) مشتركة ولكن عابرة، ويجب عند تقييم هذه النقاشات بين الأطفال حول برنامج معين أن نضعها في موضعها المناسب.

فمشاهدة الصور المتحركة والأفلام والمسلسلات لا تثير فضولاً يتجاوز تعابيراً مثل «لذيذ» أو «رائع» أو «لابأس»، وربما في لحظات عابرة من دردشة طويلة وصفاً حاكياً بالصوت* لمطاردة بالسيارات في شوارع

* حاكية صوتية: كلمة يحكي صوتها صوت الشيء الذي تصفه.

obeikandl.com

لوس أنجلس أو سان فرانسيسكو، غير مفيد ولا يهم أحداً؛ لأن الجميع شاهد بأم عينه السيد هاري يصفي حسابه مع كل أولئك «الأوغاد». وبالتأكيد كل هذه «الحوارات» تنتهي كالآتي «غداً يوجد فيلم لرامبو على المحطة الثالثة، وإذا لم أتمكن من رؤيته، فسوف أسجله على شريط فيديو». إن المتع التلفازية ليست قابلة للاسترجاع، لأنها آنية أو متعلقة بالمستقبل القريب المنظور.

لا يعلم التلفاز اللغة؛ لأنه أولاً وقبل كل شيء ليس سوى مَشَاهد، فاللغة بوضوح ذات جانب اجتماعي ووظيفي، ويحتاج تعلمها لعلاقة تبادلية مع الطفل حتى يتمثلها، «يتكلم الأطفال بنفس طريقة كلام والديهم؛ لأن هؤلاء وليس التلفاز يلبون حاجاتهم» هذا ما تقوله باربارا. أ. فولز.

ليس التلفاز عاجزاً عن تعليم الطفل الكلام فحسب، ولكنه لا يدفع للحوار بين الأطفال حتى عندما يشاهدونه معاً. «ميريه شالقون الصحفية ومنتجة برامج الأطفال، أظهرت أن التلفاز هو وسيلة سيئة للتعلم، وأن «الشاشة تعيق تعلم اللغة».

أولاً: « لأن التلفاز سريع والصورة تتبعها صورة، (...) إنه لا يدع الوقت للتفكير، ولا يسمح بالرجوع للموضوع بتؤدة، كما نفعل في عبارات الكتاب الذي نقرؤه، ولا يمكن له أن ينطبع في الذاكرة لوقت طويل، إن من النتائج الأخرى لهذه السرعة: ضرورة فهمه سريعاً...».

ثانياً: «مبدأ عمل التلفاز هو تتابع الصور، وهذا لا شيء فيه، ولكنه أصل العلة، إن التلفاز لا يعين على التمكن من اللغة لأنه من غير المفيد تسمية ما نرى، إضافة إلى أنه يميل إلى تحويل الأحداث والأفكار إلى عرض

ومشاهدة، وبما أنه يزُود بالصور، فإنه يخاطب العاطفة أكثر من مخاطبة العقل، ويُـزود بحساسية وشفافية تجاه الأشيـاء أكثر من تزويده بمعارف تتعلق بها».

## الطريقة الأمريكية لحياة التلفاز

حالة الولايات المتحدة:

- البرامج مستمرة 24 ساعة في اليوم.
- صباح يوم السبت: ثلاث محطات مخصصة بالكامل للأطفال من 2-11 سنة= 33 مليون طفلاً.

الشتاء: 2-5 سنوات: 4 ساعات و 46 دقيقة في اليوم.

6-11 سنة: 4 ساعات و 14 دقيقة في اليوم.

الصيف: ساعتان تقريباً في اليوم.

المعدل السنوي للمشاهـدة: 3 ساعات و39 دقيقة في اليوم، وهذا يساوي 24 ساعة بالأسبوع، وهذا يساوي 1300 ساعة في السنة.

يقضـي الطفل الأمريكـي أمام شاشة التلفاز عـدد ساعات يفوق عدد الساعات التي يقضيها في المدرسة.

87% مـن الأطفـال يشاهـدون برامـج ليست مخصصـة لهم! معلومات مستقاة من محاضرة ألقتها الدكتورة كارين بوتشي طبيبة ملحقة بإدارة الخدمات الصحية للتعليم الحكومي بمقاطعة جنيف.

لوكارنو، تشرين أول 1990م.

obeikandl.com

ثالثاً: «يتوجه التلفاز إلى كل الناس بنفس الوقت، ولا يمكنه أن يلاحظ مستوى كل شخص على حدة، وهذا أمر يجب مراعاته في كل إجراء تعليمي. وهكذا يتعلم الطفل أموراً جديدة دون أن يعرف أين تجري، وبدون إدراك لوسطها الجغرافي أو التاريخي أو السياسي».

سواء كان ذلك ضمن العائلة، أو بين القُرناء، لا يُولد التلفاز موضوعاً للحديث، ولا يسهم في إغناء المفردات الفاعلة، وذلك لأن اللغة المستخدمة في الرائي معظم الأحيان هي ثمرة حديث أو لغة ناطقة بأسلوب مباشر. الأزمنة اللغوية بسيطة، ويستبدل الاسم، والتعجب هو السائد، الكلمة ليست سوى أداة تخريب لآلهة الصورة، التي تحكم الدين المهبطي الجديد.

## اللعبة ـ الألعاب

إضافة إلى اللغة يشكل اللعب أحد العناصر المهمة التي تسهم في بناء وتطور شخصية الطفل، ويُعرف الاختصاصيون النفسيون والمربون اللعب على أنه نشاط جسدي أو ذهني دون هدف مفيد بالضرورة نلجأ إليه للحصول فقط على المتعة التي يعطينا إياها، فإذا تمسكنا بهذا التعريف الوحيد والموجز فسيكون بحوزتنا في النهاية! دور نبيل استُحدِث لهذا التلفاز صياد الأطفال المثير للجلبة، وكما هي الحال في اسكتش فرنان رينو حول «البرتقالات»، يبقى علينا فقط إزالة بعض الألفاظ من الإعلان المُغري «التلفاز هو اللعبة».

هل مشاهدة التلفاز نشاط جسماني؟ حتى وإن مررتم مرور الكرام على الفصل المخصص للصحة الجسدية للطفل مدمن التلفاز، فإن الجواب على السؤال واضح دون نقاش، إلا إذا اعتبرتم أن الطاقة المصروفة لتحريك سبابة اليد اليمنى التي تقلب المحطات تستحق أن توصف بكلمة الجهد.

هـل مشاهدة التلفـاز نشاط فكري؟ لعلمنا بـأن كل حالة وعي ـ بما في ذلـك النوم ـ تسبـب فعالية دماغية، فـإن بإمكاننا أن نتخيـل أن مشاهد التلفـاز عندما يكـون في أقصى درجات تفاعله مع مـا يشاهد يُبقي بعض الخلايا العصبية في حالة التأهب، ولكننا لا نعطي أي قيمة لعبية أو تأهيلية للمشاهـدة السلبية، ونضم بذلك رأينا إلى رأي أ. ماكارينكو الذي يصرح بمايلـي: «في كل لُعبة مفيدة، يوجد أولاً جهـد جسدي وجهد فكري (...). إن لُعبـة دون نشاط أو بـذل جهد هي لُعبة سيئة دائمـاً، يمكننا أن نواصل الشـرح، ونتابع تحليل عبارات مثل «اللذة المستفادة» و «بدون فائدة»، ولكن يبدو لنا أن هذا الأمر غير مفيد؛ لأن الشرط الأول لكل لُعبة يبقى الحركة، وأن العطالـة التي يقتضيها «فعل» مشاهدة التلفاز تبدو لنا أكثر قدرة على خنـق النشاط منها على تحريضه بطبيعة الحال: فإذا لم يكن التلفاز لُعبة بحد ذاته، فهل يمكنه أن يوحي للطفل باللعب؟

بالتأكيـد نعـم؛ وخاصـة عند الأطفـال الأصغر سناً الذيـن يجدون في أبطال صورهم المتحركة مصادر ثرة لمشاهد لعبية.

مصادر غنية؟ ليس بالتأكيد!.

إن المربيـات في دور حضانـة الأطفال، ومدرسـات الأطفال في الأعمار الصغيرة اللواتي يشهدن عن قرب ـ أطفالنا الصغار، يؤكدون وجود نقص واضح في لَعِب الأطفـال، وفي لغتهم وحتى رسومهم بعد مُدَدٍ من المشاهدة الطويلـة للتلفـاز (الطقـس السيـئ ـــ الفصول البـاردة)، وهـذا ينطبق خصوصـاً على الذكور الذين يبدون أكـثر قابلية للتأثر بالتلفاز من البنات في هذا العمر؟ أمـا ما يتعلق بالإبداع والقدرة على الاختراع، وهما هدفان

أساسان للعب كأداة لبناء الشخصية، فإن التقليد الحرفي غالباً للمشاهد المرئية في الليلة السابقة لا يدع لهما أي مجال.

السيدة لوفنت سيكوس التي تعمل كمدرسة كتبت: «ما يثير القلق بالنسبة لنا كمدرسين هو ملاحظة كيف يلعب مسلسل تلفازي مثل سلاحف النينجا دوراً هداماً في القضاء على عالم الخيال والإبداع عند الطفل، أصبح اللعب الذي يعتبر أداة أساساً في نمو الطفل وتطوره إعادة دقيقة لآخر حلقة شاهدها من سلاحف النينجا، ونجد فيه اللغة نفسها ونبرة الصوت والحركات ذاتها، وويل للطفل الذي لم يهتم بشخصيات المسلسل لأنه سيتم استبعاده من المجموعة. لقد وصلنا لدرجة أن على الطفل الذي يُقبل في اللعبة أن يقلد كالقرد إحدى سلاحف النينجا ليظهر كفاءته في اللعب! ربما كان هذا النمط من السلوك موجوداً دائماً، ولكن عندما نطلع على فحوى هذه المسلسلات، فلابد أن يصيبنا الهم!

إن من سوء حظ المدرس أن هذه الشخصيات لا تظهر فقط أثناء لعب الأطفال، وإنما في رسومهم كذلك، وفي نشاطاتهم اليدوية، وفي طريقة كلامهم، إن لم يكن في مجيئها للمدرسة بشكلها البعيد عن الحس الجمالي، وهذا تعبير عن استمرار حتمي لدعايات تجارية تظهر على التلفاز خلال مسلسلات الأطفال» انتهى كلام لوڤنت سيسكو.

وهنا يظهر على السطح سؤال مهم: ألا يمنع التلفاز الذي يستهلك بشراهة الوقت المخصص للهو الطفل من الاستمتاع بكثير من فرص الاحتكاك الاجتماعي، كاللعب الحقيقي مع أصدقائه والرحلات والنشاطات خارج حيز المدرسة؟

ولابـد لنا من أن نُذَكَّر بأن معظـم الأطفال يبقون جالسين أمام التلفاز لأنـه ليـس لديهم خيـار أفضل، فلو استطاعـوا أن يختـاروا لاختار الكثير منهم الخروج مع والديهم أو اللعب مع أصدقائهم، ويذكر كلاً من شالقون وكورسيـه أن: «مـن الأمور العجيبـة أن التلفاز أصبح للكثـير من الأطفال ملجـأً ووسيلة وخياراً ثانياً لشغل الوقت: فإذا كان بإمكان الطفل أن يختار بـين عدة نشاطات ترفيهية، فسنلاحظ أن «مشاهـدة التلفاز» تأتي بنسبة (11%) مـن الخيـارات، بعـد «ممارسـة الرياضـة» (36%)، و«الذهـاب للسينمـا» (20%)، أو «الخروج مع الأهـل أو الأصدقاء» (12%). فكما هي الحـال بالنسبة للبالغين يبـدو أن سحر الرائي قد انتهـى وغدا واحداً من الأدوات المنزليـة الكهربائيـة العاديـة الذي يُلون الحيـاة، ولم يعد مصدر شغف كبير».

أمـا بويان ودارتيفيل فيصلان إلى نفس الاستنتاج عند المراهقين: «تبدو مشاهـدة التلفاز كنشاط عائلي لابد منه، وخضـوع للنظام العادي الرتيب. وقـد وصل درجة من الاهتراء والاعتياد حتى أننا لم نعد نطلب منه سوى أن يكون حاضراً، ولو كان الأمر عائداً إليهم في قضاء سهرتهم، لاختار تسعة من أصل عشرة مراهقين أن يمارسوا بعض الأعمال المنزلية اليدوية، أو الذهاب للسينما. أقل من 10% سيفضلون التلفاز على النشاطات الأخرى».

وعلى غرار الكثير من الكُتاب لا يمكننا إلا أن نلاحظ التناقض الواضح في مواقف الأهل مع أطفالهم بخصوص التلفاز، إنهم يريدون من أطفالهم أن يلعبوا، ولكنهم يرغبـون برؤيتهم مسمرين أمام التلفاز عندما يرغبون بالحصـول علـى الهدوء، ولابد لنـا أن نكـرر: إنهم بحاجة لمربيـة أطفال

منزليــة (التلفاز) تتقاضى أجــراً زهيداً قدره 25 قرشــاً بالساعة (وهذا أجر لا يمكن منافسته خاصة وأنها خدمة متوفرة في أي وقت!).

إن البنت البكر لأحــد مؤلفي الكتاب بعد عودتها من إقامة دامت عاماً عنــد عائلة أمريكية تقول بشيء من الدعابــة: «هنا بمجرد أن يجلس أخي الصغير لُوان أمام التلفاز تقيمون الدنيا وتقعدوها لتدفعوه للخروج واللعب خارج المنزل.

أمــا في أمريكا، فإذا عــادت الأم ولم تجد طفليها مُسمرين أمام شاشة أحــد أجهزة التلفاز، فإنها تبحــث عنهما في كل الحي لتقنعهما بأن التلفاز يعرض برامج رائعة تناسبهما، وأن عليهما العودة للمنزل مباشرة!».

## الرداءة ليست قدراً

يبــدو أن البالغين أصابهم الإحبــاط، وأنهم يقفون عاجزين أمام التلفــاز، هــذا إن لم يكونــوا مفتونين بــه، إن تلفاز الصبــاح يعطينا المثــال على ذلك، في عــام 1984م، 94% من الناس الذين استجوبوا أجابوا بأنهم لا يسمحــون لأطفالهم بمشاهدته، وبعد ثلاث سنوات، أصبــح 27% من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 7 و 10 سنوات يتناولــون فطورهــم وهم يتمتعــون بمشاهدة الرســوم المتحركة قبل ذهابهــم إلى المدرســة! «أصبح التلفاز موضوعــاً تجارياً، ولم تعد له أهــداف الخدمــات الحكومية، فمــاذا بإمكاننا أن نفعــل؟....» هذا هــو التعليق السهل الــذي نسمعه غالباً، ولكن أليس هــذا سبباً كافياً يدعونــا للمطالبــة بالقليل من الشــروط؟ إن المُنتَج الــذي لا يجد له راغبــاً يُسحــب من السوق، فــإذا كان الأطفال مصــدراً من مصادر

دخل محطات التلفاز، أفلا يحق لهم ـ ككل مستهلك ـ الحصول على النوعية الجيدة والخيارات المتعددة والتنوع؟ فإذا كنا نقبل بالمنطق التجاري فدعونا نصل فيه إلى نهايته، إن إعادة بث مسرحية يكلف أقل من «صور شبه متحركة»، إن فيلماً وثائقياً جيداً يمكن له أن يعاد بثه بانتظام، فجمهور المشاهدين من الأطفال له ميزة التجدد بسرعة (ففي فرنسا 750000 ولادة سنوياً). كما أن تقريراً مصوراً يمكن له أن يُصدّر للخارج، وهذا لا ينطبق على البرامج الحية المباشرة المُؤسِفَة، فالرداءة ليست قدراً.

هل الفتاة تبالغ مستهزئة؟ ليس تماماً... فما حصل في الولايات المتحدة قبل 4 سنوات، هو دون شك ما يحصل في فرنسا أو سويسرا في العام 2000م أو قبل هذا التاريخ إذا اعتمدنا على تصريحات لوان الذي يعود من اكتشافاته مع أصدقائه في شوارع القرية قائلاً: «لا توجد قطة في الشارع، فالجميع يشاهد التلفاز!».

أمريكا على أبوابنا: هذا ليس مدعاة للفرح! وخاصة إذا أتحنا الفرصة لألبرت أينشتاين الملاحظ الدقيق ليقدم للفصل اللاحق المتعلق بالثقافة: «مرت الولايات المتحدة من الهمجية مباشرة إلى الانحطاط دون المرور بالحضارة».

obeikandl.com

obeikandl.com

«لا تموت ثقافة إلا بسبب ضعفها»
أندريه مالرو (1901م ــ 1976م)
كتاب فتنة الغرب

**الفصل السادس**

# أي ثقافة نختار لأبنائنا؟

«ليس التلفاز سوى أداة، يمكن أن تسخر للخير أو الشر، ولا أحد يستطيع أن يدعي بطيب نية أنه لا توجد برامج مفيدة تربوية وتكوينية وثقافية!». إن هذه الحجة التي يلجؤون إليها كثيراً لإقناعنا تبدو مقنعة للوهلة الأولى، وتستحق أن نعلق عليها.

أولاً: وبحكم كوننا مدرسين لا يمكننا إلا أن نفخر بجميع التعابير مثل: «تربوي» و «تكويني» و«مفيد» و«ثقافي». وهذا يظهر مدى احترام الناس للمدرسة القائمين عليها بشكل خاص، ولكننا لسنا مقتنعين بأن المؤسسة التعليمية الحالية تستحق دائماً هذا المديح، فعندما نضعها تحت الأضواء، ونراها بأعين الوالدين والصحفيين والأوساط الاقتصادية والسياسة، فإن نعوتاً أخرى أقل إطراء تنطلق غالباً عن علم ودراية.

## الثقافة وانعدام الثقافة

وعلى كل حال فالمدرسة ليست موضوع حديثنا، ولنعد إلى أغنام بانورج وراعيتهم (مثل فرنسي يعني العودة إلى الموضوع الأصلي) أي التلفاز! فكلمة «ثقافة» قد أطلقت، وكلما حاولنا أن نتخيل أثراً إيجابياً للتلفاز على